الناس . لتقم قيامتهم ، اذا كانوا ، فيما يرى هو ، على خطأ ، ما دام هو قانعا بسلامة دخيلته . ودخيلته كانت في صفاء الجوهر ، وصلابته . دخيلة لم تعرف الحقد على أحد . الجمهور ؟ انه يرى انيابه ، ولكنه لا يفعل الا ان يدير ظهره اليه ، وليكن ما يكون . ما نطق لسانه — فيما أعلم — بقذف في أحد ، وما اكثر من قذفوه . وما انشق قلمه يوما عن كلمة حقد على أحد ، وما اكثر الاقلام التي حقدت عليه .

اما أنه رفض ، فذلك كل شيء . وهو لم يرفض — كما يفعل الكثيرون ممن يركبون موجة الرفض — كعملية ميسرة ، مريحة . انه رفض ، مع مقارعة مستمرة مع النفس . ال « لا » كانت لديه غيمة مشحونة . ولكنه عرف من اجلها الزمهرير ، والبلل ، والعراء . قصائده سجل لذلك كله . قصائده تفصيل لذلك العذاب الذي يتخطى اسطح العاطفة الى تضاعيف الذهن . العذاب الذهني هو الاعتى والامض . أراد الحرية ، وأراد الحب ، وأراد الوطن ، وفي سبيلها رفض كل ما هو غير ذلك — ولما لم يحقق واحدا منها ، وجد نفسه منفيا الى تلك البراري القصية ضمن أبعاد الذات، حيث تتقضى الليالي فوق رأسه في مبارزات سيوف من نار . لا سيف الام وحدها ، ولا سيف الحبيبة وحدها ، بل سيوف كثيرة هي سيوف الارادات العميقة التي تلوحها في وجهه دواخله أنى توجه . أراد أن يعبر الارض البوار ، ولكن أرض البوار امتدت تحت قدميه الى ما لا نهاية . وجب الاسود، ذلك الذي ذكره في نهاية قصائده الثلاثين ، وهو في اواخر عشريناته ، هل كان الا الجب الذي حمله دوما معه ، مؤملا ان يغلق دونه الافواه الضارية يوما — في قصيدة أخرى ، في ترحال ، في عشق امرأة ، في مجابهة للانتحار ، في تحرير مجلة ، في رسالة الى صديق او عزيز — ولكن الاسود بقيت على ضراوتها تطالب بالفريسة .

لم يكن غريبا اذن ان توفيق صايغ هو الذي كتب أغرب وأعجب قصيدة في اللغة العربية ، عندما كتب قصيدته «بضعة أسئلة لأطرحها على الكركدن». لقد وجد توفيق في الاسطورة الوسيطة الموازي الوحيد لقضيته الفكرية . فهو وحيد قرن — حيوان أبيض جميل ، وحشي ، يعيش في أعماق الآجام ، وحيد كالاله ، يبحث مثله عن العذراء « المتعذرة الوجود » ، يستحيل صيده الا بالخديعة ، ولقرنه الماجي فوائد يشتهيها المطاردون ، ليس أقلها انه اذ غمس في السم أزال عن السم صفته القاتلة، وانه « يسهل على النسوة مخاضهن / ويشدد في رجالهن العصير . » أما الايقاع به ، فلن يكون الا عن طريق عذراء تبعث اليه ، وتغويه ، فيضع رأسه ذا القرن في حضنها ، وعندها يكون موته على ايدي الصيادين الذين في انتظاره :

يكون موته الاخير في حبه ، وعفته :

ابدا يطاردونك .
وحوش الغاب ليست
أشدّ عليك من
القانصين الرشاق .
يطاردونك ، وتطاردها ، معا
ليحملوا الموت لك
لتحمل لها المحبة والعبادة
لتحمل الموت لك .

الاسئلة التي يطرحها كثيرة ، ومهمة . وهو بالطبع يطرحها على نفسه . العذراء قضيته ، وهي الوحيدة التي سيطلبها ، عازفا عن النساء كلهن : يطلبها ظنا منه ، كما يقول ، انه كفارس في العهد الوسيط سينقذ عذراء قيدت على صخرة « من عدو يرى واعداء في الخيال . » ولكن العذراء تطلب عشقا جسديا ، تطلب ان تفتض ، وتدمى ، وهو يريدها دونما جسده ، يضع قرنه السحري في حضنها لا ليستنزف دمها — بل دمه هو . فتجد العذراء انه « اسطورة معكوسة » ، انه

البطل الضحية ،
يطلب ، لا
يخلص ، الخلاص ،
ضحية ، اتقرن ذاتها بضحية ؟

ويرتاح هو بها ، فيما هي تضطرب ، ويفهم هو اضطرابها ، ولكنها لا تفهم ارتياحه .

وهذا ما جرى لتوفيق . طلب الخلاص ووجده بطلا ضحية ، كما تنبأ . كما أراد .

* * *

في صباح يوم من خريف عام ١٩٥٢ كنت أسير في باحة جامعة هارفرد، غريبا لا يعرفني أحد ولا أعرف أحدا، عندما سمعت صوتا يناديني باسمي ، بلهجة لا أخطىء فلسطينيتها . تلفت ، واذا بشاب ملحى، أصلع الرأس ، يعيد مناداتي . ولما اقتربت منه ، أحسست فجأة بالبريق العجيب الذي في عينيه الصغيرتين الذكيتين ، الباسمتين . وقد ادرك انني لم أعرفه ، فقال : « ألا تذكرني ؟ أنا توفيق صايغ . » فقلت : «ليس الاسم غريبا ، ولكن...»